وجوب التنبه.. للإعلام المعادي

« ١ »

من الحقائق التي لا تقبل الجدل: أن تناجي اليهود بالإثم والعدوان عندما كانوا يرون واحداً من الصحابة، في حقبة الموادعة بينهم وبين المسلمين: كان نوعاً من الخبث الإعلامي يقصد من ورائه إدخال شيء من القلق والرعب في نفوس بعض الأفراد من المسلمين، وأن الله تعالى كشف هذا الزيف، وزاد في إيمان المؤمنين وثقتهم بربهم وصدق توكلهم عليه، الأمر الذي يثمر زيادة الثقة بالنفس، وينفي خبث الحرب النفسية التي يمارسها العدو مستغلاً تلك الموادعة التي كانت بين اليهود والمسلمين ولكم ما جاء في سورة المجادلة من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

ودلالة هذه الواقعة واضحة في أنه لا بد ـ مع الإيمان ـ من الأخذ بالأسباب، وتلك سنة الله في الكون. المؤمنون ـ وهم مؤمنون ـ يأخذون بالأسباب ويُعدُّون العُدَّة كما أمرهم الله تعالى ويتوكلون عليه، تأسياً بما كان صنيع قدوتهم وإمامهم رسول الله ﷺ، حيث كان في دعوته وهجرته وجهاده وبنائه للمجتمع والدولة: يسير على مقتضى السنن الكونية التي برأها الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فتراه لا ينفك يُعدُّ لكل أمر عدته في حدود المستطاع، ولا يهمل أن يأخذ بأيٍّ من الأسباب المشروعة التي يمكن الأخذ بها. أما أن يكرمه الله بالمعجزة: فذاك أمر آخر، لكن السير مع السنن الإلهية في الكون مع صدق التوكل على الله: هو الأساس.

وكل أولئك يقع مضموماً إليه صدق اللجأ إلى الله وطلب العون والنصر منه سبحانه؛ لأن الأمور بيده، وما النصر إلا من عنده وهو الحكيم الخبير.

لذا رأينا هنا أن الآية القرآنية في مواجهة صنيع اليهود عملت على تثبيت القلوب، وطمأنة النفوس كيما يكون المسلمون قادرين ــ بعون الله ــ على اتخاذ الموقف المناسب ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وهذه شعبة أخرى من شعب الضياء في المعلم القرآني. اليهود يرمون إلى إثارة نوع من الرعب وخلخلة الثقة بالنفس. ويأتي المعلم النيِّر الكريم هنا، ليثبِّت في أعماق النفوس أن النجوى التي يمارسها اليهود: من الشيطان، والغاية هي إدخال القلق والحزن على الذين آمنوا، ولكن ذلك ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، وإذن فليتحرر المؤمنون من كل نوازع الخوف والترقب المرهق، وليتوكلوا على الله فهو حسبهم ونعم الوكيل. والآجال بيده لا يقرِّبها إقدام ولا يؤخِّرها إحجام، وهو ناصرهم إن هم نصروه.

والمؤمنون يعلمون حق العلم أن التوكل إنما يكون توكلاً حقيقياً صادقاً، إذا اقترن بالعمل والعزيمة الصادقة في الأخذ بالأسباب المطلوبة الممكنة، وإلا كان نوعاً من التواكل.

والذين تسوِّل لهم أنفسهم أن التوكل يعني التواني والتكاسل والقعود عن الأخذ بالأسباب ــ ثقةً بما عند الله ــ على زعمهم، يجنون على أنفسهم ويجنون على الحقيقة الإسلامية في هذا. شأنهم شأن أولئك الذين يزعمون أن الأخذ بالأسباب هو كل شيء، ولا يلتفتون إلى حقيقة أن النصر من عند الله، وأن نتائج الأخذ بالأسباب من خلقه سبحانه وتعالى؛ فلا بد من الجمع ــ كما كان يفعل رسول الله ﷺ وهو نعم الأسوة للمؤمنين في كل زمان ــ حين يستوفي الأخذ بالأسباب المتاحة، ولا ينى يطلب النصر من الله، ويلجأ بخشوع وخضوع إليه سبحانه.

من أجل هذا: لعلي لا أبعد النجعة إذا استوحيت من ضياء المعلم القرآني وما اكتنف معانيَه من وقائع: أن من المهمات على طريق الدعاة والمربين المصلحين اليوم ــ والأمة تطمح إلى تحقيق غايات كبار ــ تنميةَ القناعة بما توجبه العقيدة من تحقيق التكامل بين الأخذ بالأسباب، وصدق التوكل على الله.

وكان ذلك هنا صورة من صور الإعلام الذي ينطلق من بواعث الخير والبر ويتحرك على ساحة الكلمة الصادقة والعلاج الناجع في مواجهة الأسلوب الإعلامي المنحرف عند العدو.. وهو واحد من أسلحة المواجهة كما علمنا القرآن، وبيّن رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

والمسلمون اليوم ـ وهم يُسامون الخسف والهوان ـ بأمس الحاجة في شتى بقاعهم إلى تنمية الطاقات الإعلامية ضمن منهج مدروس يجمع بين الأصالة وإدراك الواقع، لتغطية المتغيرات في العالم الإسلامي، والوقائع التي تلدها التحديات والتصرفات الجانحة صباح مساء.

ومن الضرورة بمكان: أن تكون إيحاءات المعالم القرآنية واضحة في الأذهان توجه العاملين البناة، وتأخذ بأيديهم إلى مرابع النجاة العلمية والإعلامية كما يريدها الإسلام.

مرة أخرى: إن آية سورة المجادلة هذه ـ وقد نزلت تكشف عن مكر يهودي، وتحرر المسلمين من إسار هذا المكر وذيوله ـ: هي معلم من معالم البناء المشرقة، ودعوة إلى تنمية الطاقة النفسية، والقدرة الإعلامية الخيرة عند المسلمين ـ أن لو شاء ذلك أهل الحل والعقد ـ واستخدام الأسلوب العلمي النافع عند المواجهة، على قاعدة من الإيمان والصدق في نشدان الحقيقة ولله عاقبة الأمور.

obeikandl.com

وجوب التنبه.. للإعلام المعادي

« ٢ »

ما أكثر ما تزخر به معالم القرآن من منابع الهدى والضياء، وما أكثر ما يجد المسلم نفسه مشدوداً إلى الواقع من خلالها؛ فهي تحل مشكلاته وتنير ما أظلم من دروب.

ولقد أذكرني ما كنا بسبيله في كلمات قريبات، بواقعة إعلامية أخرى، حشد فيها المشركون طاقاتهم الدعائية بكل الوسائل المتاحة، لإلصاق التهمة برسول الله ﷺ وأصحابه بأنهم قاتَلوا وقَتَلوا في الشهر الحرام؛ وما دام الأمر كذلك: فقد سقطت الأقنعة، وما على العرب جميعهم من وراء قريش إلا أن يكونوا معها في القضاء على هؤلاء الذين لا يرعون للأشهر الحرم حرمة، ولا يقيمون للأعراف الموروثة عن الآباء والأجداد أيَّ وزن.

وجاء الرد القرآني عليهم بأن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن ما صنعه مشركو قريش أكبر، وفتنة المسلمين عن دينهم أكبر من القتل، وامتد رواء الهداية إلى تنبيه أهل الإيمان على أن الصراع مع الشرك وأهله: صراع على كلمة التوحيد، ولن ينقطع الجاحدون عن قتالكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومن يرتد منكم عن دينه فمآله الخسران المبين.

والحق أن ذلك الطرح المنصف، المثقل بالتوعية، ورد القضية إلى جذرها الأصلي، كان تنبيهاً للغافلين، وإيقاظاً لمن قد يؤخذون بضجيج الدعاوى، والصياح الفارغ من هنا وهناك؛ وتُلفيه على طريق المسلمين المثقلة بالأعباء: معلماً مباركاً علّم أهل الإيمان كيف تُردُّ الأمور إلى نصابها، وفتح للأمة آفاقاً في المواجهة الإعلامية وبواعثها وذيولها، لا يحدها عصر من العصور، ولا مناسبة محدودة بلون من الملابسات.

ذلك بأن رسول الله ﷺ ـ كما تذكر المصادر ـ بعث عبد الله بن جحش الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى بسرية ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يسير يومين فينظر فيه فيمضي كما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، فلما سار عبد الله يومين فضَّ الكتاب فإذا فيه: «أن سر حتى تنزل بطن نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارهم»؛ فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوصِ، فإنني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فسار وتخلَّف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان أضلاً راحلة لهما وتخلفا يطلبانها، وسار عبد الله حتى نزل نخلة فإذا عيرٌ لقريش تحمل زيتاً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي وكان ذلك في آخر يوم من رجب من السنة الثانية للهجرة.

وبعد أخذ ورد وقدر كبير من التشاور قالوا: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلنَّ الحرم فليمتنعنَّ منكم، ولئن قتلتموهم لتقتُلنّهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، وكان أن قتلوا عمرو بن الحضرمي وأخذوا أسيرين والعير، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

وقالت قريش حين بلغها الأمر: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال ـ وعلى لغتنا اليوم ـ حشدوا كل طاقتهم الإعلامية المتاحة يومذاك.

ومن كثرة ما قيل، أُسقط في أيدي عبد الله بن جحش وإخوانه، وظنوا أنهم قد هلكوا وحاول اليهود استغلال الواقعة، وتفاءلوا أن تكون بداية لمصاعب على طريق المسلمين.

فلما أكثر الناس في ذلك ـ كما يقول ابن إسحاق ـ أنزل الله على رسوله ﷺ قوله جل ثناؤه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]. تلا ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

هكذا حاول المشركون تضليل الرأي العام في جزيرة العرب وإثارة الناس ضد الإسلام وأهله من طريق استغلال الواقعة التي حصلت، وإعطائها حجماً يقصد من ورائه التعمية على ما قاموا ويقومون به من الأذى وفتن الناس عن دينهم، بما يملكون من أساليب لم يكن أقلَّها التعذيب والتهجير والتهديد بالقتل وما إلى ذلك.

وجاءت الكلمة القرآنية لتبين حكم ما حصل ولتضع الواقعة موضعها الطبيعي ضمن حقبة تاريخية تمتد إلى ما يقرب من خمسة عشر عاماً في مكة والمدينة وما بينهما، وتواجه ادعاءات مشركي قريش وما قاموا به من ضجيج إعلامي حول صنيع عبد الله بن جحش وإخوانه رضي الله عنهم، يهدف إلى إحداث رأي عام ساخط على رسول الله ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ودعوة الإسلام، ولتعالج المشكلة من منطلَق المواجهة بالحقيقة مفصَّلة بأرقامها ووحداتها، بأسلوب غاية في الإنصاف والتوجيه الحكيم الرشيد. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ قل يا محمد ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ ولكن أين هذا القتال في الشهر الحرام مما صنعته وتصنعه قريش!! فالصدُّ عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، وإخراج أهل هذا المسجد منه ـ وهم أهله ـ واضطرارهم إلى الهجرة أو الاستخفاء: أكبر عند الله من قتل من قُتل من المشركين وهو عمرو بن الحضرمي...

والفتنة أكبر من القتل؛ فقد كان هؤلاء الذين يزعمون الغيرة على حرمة الأشهر الحرم يفتنون المسلم في دينه بألوان الأذى حتى يردوه إلى الكفر؛ فذلك أكبر عند الله من القتل.

أقول بعد هذه الرحلة القصيرة التي قد لا يتسع لأطول منها المقام: إن في هذا المعلم القرآني دعوة للمؤمنين في كل عصر أن يزيدوا من تنمية الوعي عند الفرد والجماعة، وتبين الحقائق بإنصاف، وبناء القوة القادرة ــ بإذن الله ــ على مواجهة كل سلاح بما يفلُّه.

ألم يقض القرآن في هذه الآية الكريمة على شائعات قريش ودعاواها المشبوهة بالحقيقة معلنة صارخة، فأنصف في الحكم، ونبَّه وأيقظ على أدق وجه وأكمله، وحال دون أن تسيطر الغفلة على المؤمنين، أو أن يهتزوا لضجة إعلامية يصطنعها العدو، أو تمويهٍ يفتريه ليكسب مظاهرة الآخرين على الحق وأهله؟ بلى قد أنار طريق الأمة بذلك وبأكثر منه والعطاء القرآني لا تحدُّه واقعة أو زمان.

اليقظة والتنبه للإعلام المعادي

«٣»

في ضوء المعلم القرآني الذي ألمحنا إلى بعض إشراقاته من قريب: يجد الناظر المتأمل لوناً من الواقعية والتربية على الصدق فيها إلى جانب البناء الذاتي، وتنمية المشاعر في مواجهة الحرب النفسية، وما يمكن أن يثير العدو من شائعات يراد من ورائها ما يراد.

دل على ذلك قوله تعالى - والخطاب للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ بعد قوله جلّ وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام. قل يا محمد قتال فيه كبير.

هذا هو الحق، ولا يغني من الحق مواربة أو مداجاة بل لا بد أن تقال كلمته بوضوح وصدق.

فالواقع أن القتال حصل في الشهر الحرام وإن كان الأمر قد التبس على عبد الله بن جحش وأصحابه بسبب أنها كانت آخر ليلة من جمادى الآخرة.

فلينطق المسلمون بالحق، مهما كانت صفة من يجادلهم أو يحاورهم في شأنه؛ فمن علامات أهل الحق، أن لا يضيع عندهم الحق، وأن يقولوه ولو على أنفسهم؛ لأن ذلك مقتضى الإيمان.

إن القرآن - على طريق بناء الذات، والثقة بالنفس - يعلِّم الأمة أن دعاوى المشركين المضلِّلة ومحاولتهم استغلال قتل عمرو بن الحضرمي، لا يصح أن يَحمِلَ على التحول عن الحق قِيدَ أنملة، وهذا ما يجب أن يكون ديدن المسلم في رحلته الطويلة عبر الحياة بكل ما لها وما عليها، وعبر ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

ولقد يعلم الكثير في عصرنا الحاضر، أن الإعلام عندما يرتفق بالحق دائماً، ويزين خطابه للناس صدقُ الكلمة، وسلامةُ المواقف، يكونُ ذلك مبعث الثقة فيما يقال أو يكتب أو ينشر، وعلى العكس من ذلك؛ عندما يستهان بالإنسان، فيزيَّن له الباطل، ويطلب منه أن يشك في مفهوماته اليقينية البدهية، لكثرة ما يُرى ويُسمع من عناوين تتناقض مع المضمونات، ومضمونات لا نسب بينها وبين بعض العناوين، صنيعَ أعدائنا اليوم ومن ورائهم الطغاة من بني جلدتنا حين يريدون منا أن نكون ألواحاً خشبية يكتبون عليها ما يريدون، ويمسحون عنها ما يشتهون.

ولكن ــ لا والله ــ ما خُلق السلم لهذا، وقد أكرمه الله بكتاب أحسن بناءَه، وسنة أحكمت إعداده وتربيته على أسس هذا البناء، وعملت على أن تنمي فيه طاقات الخير، ومشاعر الوعي، فهو يخوض الحياة حين يخوضها شعارها قول عمر رضي الله عنه: «لست بالخَب ولا الخِب يخدعني» والخَبُّ أو الخِبُّ: الخدَّاع وهو الجُربُزُ الذي يسعى بين الناس بالفساد.

وإنما يصاب بالضعف أمام ذلك من يصاب من المسلمين: حين يدبرون عن ساحة الوعي وخصائص البناء.

وهكذا كان من منهج القرآن في إبطال دعاوى المشركين وضجيج إعلامهم في أمر القتال في الشهر الحرام وما وقع من واحدة من سراياه عليه الصلاة والسلام: أن قررت الآية الكريمة التي نزلت في ذلك أن القتال في الشهر الحرام كبير، وكان ذلك أدعى لإخراس ألسنة السوء، وأكثر تنميةً لبواعث الثقة فيما يقال، وأعمق تنبيهاً للمسلمين على مر العصور أن لا تحملهم الرغبة في الدفاع عن النفس ورد تهمة صدرت عن العدو: أن ينزلوا إلى مستوى يتجاوزون فيه الحق ــ ولو جزئياً ــ إلى الباطل.

من أجل ذلك كانت النقلة إلى المرحلة التالية التي جرى الإلماح إليها فيما سبق من القول بشيء من الإجمال؛ فالقتال في الشهر الحرام كبير، ولكن صنيع المشركين أكبر وأكبر. وعلى هذا: فالجناة الجناة هم أولئك الذين يجاهرون الله بالعداوة،

فيعدلون به الأوثان والأنداد، ويحاولون القضاء على الدعوة التي تحمل للإنسان معاني وجوده، وعملوا ــ ويعملون ــ على فتن الناس عن دينهم بأشد وأقسى أنواع الأذى مما عرف يومذاك.

وبعد ذلك ينوحون ويُعولون، تظاهراً بالغيرة على حرمات الأشهر الحرام، في تديُّنٍ مصطنع ما أشبهه ببعض دعاوى اليوم وخرافات هذا الزمان!! حيث يقضى على الإنسان المسلم باسم الإسلام، وإذا تسنى له أن يشكو، فالويل له من حكم المنطق الحضاري المزعوم، لأنه لا يتعامل مع الجزارين بذوق حضاري!! ولا بسلوك يتفق مع حقيقة الدين!!.

فأية فتنة يريد المشركون أن يشعلوا نارها تحت ستار ما جرى من عبد الله بن الحضرمي وإخوانه؟!.

إنها السهم الذي ارتد إلى حلوقهم من خلال بيان منصف حكيم، وتوجيهات ناجعة في الواقعية والتنمية الحقة والبناء الذي لا تعوزه النباهة واليقظة، ولا يعرف الجورُ في الحكم إليه سبيلاً.

obeikandl.com

البناء.. والتجربة والإعلام المعادي

« ٤ »

لقد كانت صورة مشرقة من صور الهداية الربانية؛ تلك التي سلكها القرآن الكريم لبناء المسلم من خلال التجربة والمعاناة، بجانب تلقين المعرفة، والتربية على أصولها المتصلة بعقيدة التوحيد.

وفي حديث موصول برحلتنا القريبة العجلى، وفاءً بوعد المزيد من محاولة الانتفاع بدلالة المعلم القرآني في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾ الآية: يحسن التنبيه على هذه الصورة العملية ــ التي تشارك فيها عدة عوامل ــ في بناء المسلم والمجتمع المسلم من خلال التجربة، والتي كانت جدَّ واضحة في النقلة من تقرير حقيقة أن القتال في الشهر الحرام كبير ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إلى مواجهة المشركين بما يتناسونه من الوجه الآخر للقضية، وهو حقيقة موقفهم الجائر المؤذي من دعوة الإسلام، والمسلمين ــ وهم الفئة القليلة المؤمنة الصابرة ــ بل من المسجد الحرام نفسه.

وكم لهم على طريق الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، والإصرار على فتنة المسلمين عن دينهم من مثالب كلها أذى، وكلها عدوان على الحق وإنسانية الإنسان، واستعلاءً ــ بالوثنية والتقليد الأعمى والافتراء على الله بأحكام ما أنزل سبحانه بها من سلطان ــ على التوحيد الخالص والدعوة إلى التحرر العقلي من سلطان الجاهلية المقيت؛ الأمر الذي يجعل حجم واقعة «بطن نخلة» أصغر بكثير مما صوّره عليه المشركون، إذا قيس بما يصنعونه منذ بدء الدعوة، حمايةً للباطل الجاهلي وأركانه المضلِّلة في مواجهة الحق الذي نزل به الكتاب.

وفي واقعنا مع أعدائنا اليوم ـ على تنوع المستويات والميادين ـ ما يشدُّ إلى قراءة جديدة لهذا الحدث بين المسلمين وأهل الشرك؛ لننظر من خلالها إلى هذا الواقع من حيث الزيف الإعلامي والتضليل الفكري، ونفيد من طريقة القرآن في مواجهة الأذى ومحاصرته بعلم وقوة وواقعية على الوجه الذي ينبغي.

والحق أنها تجربة عملية رائدة، زادت في قدرة المسلم على ساحة البناء، وردّت الذين كفروا بغيظهم لم يتحقق لهم ما أرادوه من تأليب العرب على الدعوة وأهلها، وضاعفت من إثارة المشاعر المستوفزة في مواجهة الشرك وأهله؛ ذلك بأنها حركته بالعقيدة من أعماقه وقادته إلى مواجهة الباطل بالحقيقة الناصعة المحميّة بالمؤمنين المجاهدين من الرجال، ووضعته في قلب المشكلة عنصراً فعَّالاً مؤثراً، لا واحداً من النظَّارة يُعجَب أو لا يعجب بمشهد مسرحي يمر أمام ناظريه.

أرأيت إلى هذه الطامات الكبار يسردها القرآن واحدة بعد أخرى، والمسلمون في غمرة الواقعة بين مؤيد ومعارض أول الأمر لما حصل في السريَّة، بسبب ما هوَّل المشركون، وضاعفوا من عويل الحرب النفسية، والإيحاءات الباردة المثيرة هنا وهناك!!.

إن المشركين الجفاة الذين يتباكون على انتهاك حرمة الشهر الحرام ـ شهر رجب ـ وقتل نفس فيه وأخذ العير وأسيرين: هم الذين صدوا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام بمختلف الوسائل، التي كان منها تقطيع أواصر القربى، ومحاولة التصفية الجسدية، مع التعذيب الدامي لكل من نطق بالشهادتين وصبأ ـ على زعمهم ـ عن عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، وخرج عن دين الآباء والأجداد، وخالطت بشاشة الإيمان قلبَه.

من أجل قتيل واحد في الشهر الحرام، تقيمون الدنيا وتقعدونها، وفي الوقت نفسه لا يختلج لكم عرق أمام عدد من القتلى والمعذبين والمشردين، حتى كأن تنكيلكم بالمسلمين أمر مشروع وحق مكتسب، والحادثة البسيطة التي وقعت منهم مع احتمال التأويل ـ فيها ـ يجب أن تقوم لها الدنيا وتقعد.

وكان جميلاً وآيةَ بلاغة وروعة أسلوب: جَعْلُ القرآن الكريم الوقوف في طريق المسلم صدّاً لا للشخص نفسه فحسب، ولكنه صد عن سبيل الله بإطلاق، كما هو واقع المسلمين مع أعدائهم اليوم. ثم إن المشركين لا يخجلهم التناقض حين يندبون حرمة الشهر الحرام، وهم يكفُرون مقيمين معقدين بالله تعالى رب الزمان والأشهر كلها، وفي مقدمتها الأشهر الأربعة الحرم.

إنهم يكفرون به سبحانه ويتخذون من دونه أولياء، ويعبدون أوثاناً لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

كما أنهم مقيمون على الكفر بالمسجد الحرام وهو بيت الله الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

نعم كفروا به حين ملأوا جنباته ـ وهو بيت التوحيد ـ بالأصنام وصاروا يطوفون حوله عراة مع الصفير والتصفيق ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال:٣٥].

البيت الذي هو بيت توحيد الله وعبادته، وموئل الطائفين والعاكفين والركّع السجود: يتخذون منه مقراً لأوثانهم، ومكاناً يعبدون فيه تلك الأوثان!! ـ وأين من هذا الرجس: طُهْرُ هذا البيت المعظَّم وصفاؤه ونقاؤه ـ.

ناهيك عن خرافات وكهانات تجري في ظل البيت وهم مصدقون لها، موقنون بأثرها في تسيير شؤون الحياة؛ الأمر الذي يتنافى كل التفاني مع دعواهم الإيمان بالله الواحد الفرد الصمد.

هذا وإخراج المؤمنين من المسجد الحرام عنوة ـ وهم أهله ـ أكبر عند الله من مقتل الحضرمي.. هذا الإخراج الذي تمثل في اضطرار المسلمين إلى الهجرة غير مرة. وكان آخر ذلك هجرتهم إلى المدينة المنورة، تلك الهجرة التي كانت مفرق الطريق، ولوناً من ألوان الابتلاء العظيم احتمله المسلمون بكمال الرضى والاعتزاز، وكان لهم بذلك ـ ولإخوانهم الأنصارا لذين آووهم ونصروهم ـ عند الله الخير في الدنيا والفوز الكبير في الآخرة.

ألاّ إن في معطيات هذا المعلم القرآني على ساحة البناء من خلال التجربة والمعاناة في ظل التوجيه الرباني: زاداً للأمة ــ وهي تملكه ــ أن تفيد منه في مواجهة التحديات الإعلامية وإحكام البناء لجيل المستقبل، وتنمية الوعي الحقيقي عند المسلم لدينه، ولما حوله كائناً ما كان موقع هذا المسلم والثغرُ الذي أقامه الله عليه.

obeikandl.com

البناء.. والفتنة عن الدين وتعرية الإعلام المناوئ

« ٥ »

في بيان مفصَّل واضح عدَّد القرآن الكريم ـ كما رأينا في كلمات قريبات ـ تلك الأفاعيل التي كان المشركون يقومون بها في صراعهم مع دعوة الحق وأهلها المستضعفين وكان منها: الصد عن سبيل الله، والكفر به، والمسجدِ الحرام، وإخراج المسلمين منه وهم أهله الأدنون، وصاحبَ هذا التعدادَ إعلانُ أن هذا الذي يجترحه مشركو قريش أكبر عند الله من القتل الذي وقع على يد سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه في الشهر الحرام؛ وهكذا شهد مسارُ الدعوة مواجهة الباطل وتزييفه الإعلامي بالحق الصراح، وتفنيداً رقميّاً لهذا الباطل، زلزل من الجذور الحملة الإعلامية التي كانت سلاحاً في حرب نفسية مقصودٍ بها زلزلةُ قلوب المسلمين وتأليب الناس في الجزيرة عليهم.

إذ إن كل من كانت لديه مسكة من عقل، عندما يقارن بين الذي صنعه المسلمون، وبين الذي صنعه ويصنعه المشركون، يجد الفرق واضحاً، وتتبدى له الأغراض المنويُّ تحققها من وراء هذا التهويل، خصوصاً إذا لاحظنا أن حادثة هذه السرية جاءت في أوائل العهد المدني أي بعدما يقرب من خمسة عشر عاماً من البعثة، خمسة عشر عاماً تمضي والحرمات المقدسة كلها تنتهك في محاربة الإسلام واضطهاد أهله والتنكيل بهم تنكيلاً أخرجهم من المسجد الحرام وهم أهله، حتى إذا قتل واحد من المشركين وأسر اثنان عادت للمقدسات حرمتها فأصبح انتهاكها ـ على ما زعموا ـ معرَّة وشيئاً إدّاً!!.

تلك هي تلبيسات جاهلية الأمس... وما يعانيه المسلمون من جاهلية اليوم أشد وأعتى... كل المظالم التي تقع على رؤوسهم في أصقاع العالم. وفيها عالَمهم لا تتنافى مع المفهوم الحضاري، فالنفوس والأموال والأعراض: حمىً مستباح وحق مضيع ما دام الانتهاك واقعاً على أرواح المسلمين وأموال المسلمين وأعراض المسلمين.. حتى إذا بلغ السيل الزبى وبدرت بادرة من قبلنا ـ مهما صغر حجمها ـ في صقع من الأصقاع ترفع جوراً أو تؤدب عدواً أو تشكو ظلماً بصوت مسموع تقوم الدنيا وتقعد، وينادي بحماية حقوق الإنسان من هؤلاء الذين لا يحسنون التعامل بطريقة حضارية؛ إذ كيف يحق لهم أن يشكوا أو أن يعترضوا!!.

والمنجاة من ذلك: تغيير جذري في مسار هذه الأمة يصلها بالمنهج الذي دل عليه هذا المعلم القرآني. ونقطة البدء بناء للإنسان المسلم وتنمية طاقاته الإيمانية والعملية من خلال الإعداد بالعلم والإعلام، وتزويده بالإحاطة بالواقع وما يكتنفه من ملابسات التجربة والمعاناة. وصنيع القرآن فيما نشير إليه واضح كل الوضوح.

وكل هذا الذي قلناه ينبغي أن لا ينسينا ما أعطيت الفتنة عن الدين الحقِّ من الاهتمام عند المواجهة؛ ذلك أن أعتى صور التحدي هي محاولة فتن الناس عن دينهم على صعيد الفرد والجماعة. ويا لعظمة القرآن في الرد على إثارة الرأي العام عند عرب الجزيرة من خلال هذا الموضوع.

فبعد أن بيّن الله تعالى أن الصد عن سبيل الله والكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، أفرد الفتنة عن الدين فقال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

أجل: فتنة المؤمنين والمؤمنات عن دينهم الحق الذي به تسعد البشرية جمعاء: أكبر من قتل إنسان واحد همُّه قتل الحق وأصحابه، وهو القتل الذي حاول المشركون من خلال التهويل من وقوعه في الشهر الحرام استغلال حادثة ابن الحضرمي.

فالمسلمون ـ في الواقع ـ أزاحوا عقبة من طريق الدعوة إلى الله، وإن كان القتال في الشهر الحرام كبيراً كما بيَّن القرآن بنصفة وعدل.

إلا أن هؤلاء الذين أزهقوا روحاً واحدة وهم يستطلعون أخبار قريش بعد أن أذن الله بالقتال في قوله جل شأنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]. إن هؤلاء البررة يحملون للناس دعوة الحياة والإنقاذ من الجاهلية الضاربة على قلوبهم بالأسداد؛ فليوضع هذا في الحسبان.

وسبحان الحكيم الخبير فيما أنزل من قرآن وما علّم وربّى أصفياءه المؤمنين على ما به يكونون قادرين على حمل العبء، لا في جزيرة العرب فحسب، ولكن على طريق الإنسانية جمعاء. فالرسول ﷺ الذي كتب الكتاب لعبد الله بن جحش حين وجهه إلى بطن نخلة: قد أرسله الله للناس كافةً بشيراً ونذيراً وجعل منه رحمة للعالمين، وعبد الله وإخوانه يقومون بمهمة في ظل هذه الرسالة التي واجهتها قريش ــ وقد جاءت بالعربية لفتها ــ بالأذى والعتو الكبير عن الحق الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

ألا إنه الحرص على الإنسان أن يحمل العقيدة السليمة التي تكون محور استثارة قلبه وعقله، وقاعدةَ وجوده الذاتي، وموجه حياته، الأمر الذي ينقذه من الهلكة، ويجعل منه لبنة صالحة في بناء منشود لأهل النهى على صعيدي المجتمع والأمة. وفي ذلك ما فيه من خير لأخيه الإنسان على وجه هذه المعمورة.

فإذا فتن عن دينه: كان الأذى عاماً لا خاصاً، وإن كان منقلبه عند الله نعم المنقلب!! إذ ليس من المغالاة في شيء ــ لولا تحكُّم الهوى والحقد الدفين ــ أن يعلنَ في الناس أنه عندما يفتن أعداء الله واحداً من المسلمين عن دينه؛ ذكراً كان أو أنثى، فقد جنوا على الأمة من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وأضروا بمعتصم الإنسانية مما هي فيه من الويلات وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وضخامة هذا الأمر ـ في ميزان الحق ـ جعلت الإكراه الملجيء القاسي عذراً في نطق كلمة مخالفة لما في القلب؛ لأن الامتحان قد يكون عسيراً كلَّ العسر كما يقع في هذا الزمان﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٥ ـ ١٠٦]. إلى أن يقول جلَّ ذكره في تبشير الذين هاجروا من بعدما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا بإكرامهم بالمغفرة من عنده: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ قال المفسرون: نزلت الآيات في عمار بن ياسر رضي الله عنه: فقد أخذه المشركون فعذبوه واشتدوا في تعذيبه حتى أعطاهم مكرهاً كلمةً أرادوها منه، فقال الناس: إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: «**ن عماراً ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي: فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: مطمئناً بالإيمان قال: «**إن عادوا فَعُدْ**».

ومن أجل ذلك أيضاً كان الوعيد في سورة البروج منصباً على أولئك الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم ثم لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق في قصة أصحاب الأخدود. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[البروج: ١٠].

وإذا علمنا أن الفتنة عن الدين قد اتسعت ميادينها اليوم، فلم تعد مقصورة على التعذيب والتنكيل وإزهاق الأرواح بشتى الأساليب: بل تجاوزتها ـ ويا للويل ـ إلى ما هو أوسع من ذلك، كان علينا أن نضع في الحساب: وجوبَ المزيد من العناية الموضوعية في بناء الإنسان المسلم الصابر المصابر، بحيث نجنب فتياننا مزالق الفتنة في الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئيَّة وما يتصل بالكلمة مما قد يكون أكثر تأثيراً في النفس منها، وقد تجتمع هذه وتلك على هذا التأثير، ونحول دونهم ودون أن تكون مناهل العلم والإعلام في ديارنا أو في غيرها مداخل انحلال وزعزعة لانتماء الدارس إلى دينه وأمته وتاريخه لا سمح الله.

إن المسلمين يتعرضون في كثير من الأقطار لأذى الفتنة عن الدين ــ وكان الله للأطفال الذين تفرزهم حملات الأعداء الشرسة ــ ولكن سعة ميادين الفتنة عن الإسلام وقيمه بوصفه منهجاً ربانياً للدنيا والآخرة، لا بد أن تواجه بتنهيج يحمل كفاية البناء المتسم بالعمق والشمول، وتنمية طاقات الخير بمنهجيَّةٍ وتساوق مع سنن الله، كي يكون شبابنا وشاباتنا إن شاء الله قوة فاعلة على طريق لا يغني معها إلا بنية قادرة على تحمل التبعات داخلاً وخارجاً، وعلى المواجهة التي تنوعت أسلحتها من السذاجة ــ بل والغباء ــ بمكان جهلها أو تجاهلها.

obeikandl.com

obeikandl.com

أثر الوعي.. في البناء ومواجهة الإعلام المعادي

«٦»

ثم ماذا بعد الذي رأينا في ظل واحد من المعالم القرآنية أشرقت به الآية السابعة عشرة بعد المئتين من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية.. من دروس في إحكام البناء العقلي والنفسي ـ بعد الإيمان ـ لمواجهة تحديات الأعداء وما يشهرونه من سلاح الحرب النفسية وإطلاق الشائعات الظالمة وقلب الحقائق.

لقد أخذ القرآن بأيدي الأمة إلى ساحة الحقيقة كما هي، وأعلن ـ مع النصفة في الحكم ـ عن سوء صنيع أهل الشرك والضلال، وأن اتهامهم المسلمين بسفك الدماء وانتهاك حرمة الشهر الحرام، لا يغيِّر من هذه الحقيقة شيئاً؛ فهم ـ على صراخهم الإعلامي واستغلالهم ـ موضع المؤاخذة بصدهم عن سبيل الله وكفرهم به والمسجد الحرام، وإخراج المسلمين الذي هم على النبع الأصيل من عقيدة التوحيد التي من أجلها رفعت قواعد البيت.. إخراجهم من المسجد الحرام وهم أهله الأدنون، وإن ذلك ـ وكله طامات وظلمات ـ أكبر من القتال في الشهر الحرام.

ثم ماذا أيضاً بعد الذي رأينا من أهمية إفراد الفتنة عن الدين بخاصة، بعد الذي سردت الآية من أعمالهم، وأن الفتْن عن الدين لا يقتصر على حالة واحدة، وأن وسائل الفتنة اليوم كثيرة؛ منها الواضح البيِّن، ومنها المقنَّع المزخرف صنع شياطين الإنس والجن.

وهذه هي الآية أوردها حرصاً على رد الأفكار إلى منابعها فيما أشرق به المعلم القرآني ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

الواقع أن الآية ختمت ــ كما نرى ــ بالتذكير بهذه الحقيقة التي هي من إخبار رب العالمين الذي يعلم ما تنطوي عليه نفوس عباده ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فهي حقيقة قرآنية وليست من اجتهادات البشر واستنتاجاتهم، والواقع دائماً يؤيدها.

هذه الحقيقة هي التي ينطق بها هذا الختام للآية وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ انظر إلى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ التي تفيد الاستمرار وإلى الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾. وتلا تقريرها بهذا الشكل الصريح القاطع أشدُّ الوعيد لمن يرتدد عن دينه فيموت وهو كافر فقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ألا ما أشد احتياج أمتنا وهي تتطلع إلى مستقبل تعود فيه إلى ما كانت عليه من القوة والتمكين والكلمة المسموعة في العالمين ــ ناهيك عن الاستقلالية في صنع القرار ــ إلى مثل هذا الدرس العظيم والانتفاع به!

فالله تعالى يخاطب المسلمين ــ بهذا الوضوح ــ أن الكفار لا يزالون ــ بوصفهم كفاراً ــ يقاتلونهم جاهدين في ردِّهم إلى الكفر، حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الكلمات: أي ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظم غير تائبين ولا نازعين.

وإذا نظرت إلى السياق وسبب النزول: تبيَّنت بيُسر ما يفهم من تقرير هذه الحقيقة في أعقاب ما مضى في الآية: من أن إطلاق الشائعات الظالمة، وإثارة العرب ــ زوراً وبهتاناً ــ من حول الفئة القليلة المؤمنة، بقلب الحقائق، وتحمل الوقائع ما لا تحمل: هو جزء من هذا القتال الذي يحمل طابع التعنت والاستمرار حتى تتحقق الغاية من ورائه.

وأين هذا الذي هو الإصرار على قتال المسلمين حتى يرتدوا عن دينهم ــ لا سمح الله ــ من دعوى المشركين أن المسلمين قد انتهكوا بصنيعهم حرمة الشهر الحرام، ولم يقيموا وزناً للقداسة والمقدسات!!.

إن الآية تلقي بالعنوان الذي وضعه الأعداء جانباً، وتكشف عن الهدف الحقيقي لسدنة الكفر والضلال المبين، وهو إضعاف المسلمين، وإعادتهم إلى حظائر القطعان التائهة في ظلمات الجاهلية، بتحويلهم عن وجهة الخير التي هداهم إليها محمد عليه الصلاة والسلام، وأخرجهم بهدي القرآن من الظلمات إلى النور.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا يؤخذن المسلم بالشائعة الموجَّهة يطلقها العدو، ولا بالكلام المنمّق الذي لا يراد من ورائه إلا التنديد المؤذي بأهل الإيمان، ولْيضع ذلك كله ــ وما هو منه بسبب ــ في موضعه من إصرار الكفرة على قتال المؤمنين جاهدين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

والوعي الحقيق: أن يكون المسلم على الأرض الصلبة في بنيته الفكرية والشعورية، تصديقاً بالثوابت التي يقررها القرآن الكريم، أو بيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن لا يؤخذ بالبهرج والزيف أو ضخامة التهويل، وأن يردَّ الجزئيات إلى الكليات والوقائع إلى بواعثها، ناظراً إلى ما وراء الأكمة؛ فدائماً على ساحة التعامل مع الآخرين: وراء الأكمة ما وراءها.

وحسن العرض للباطل واللعب بالألفاظ ــ في اغتنام للفرص ــ: لا يغيِّر من هوية هذا الباطل، ولا يحيله إلى حق؛ ولذلك حذَّر الله المسلمين ــ وهم يتحركون تحت راية الصراع بين الحق والباطل ــ من الاستخذاء أمام هذه القوى العاتية التي لا تدع سلاحاً إلا استخدمته في عدوانها على الإسلام وأهله.

أجل حذرهم الهزيمة النفسية والمادية، والتهاون أو التفريط بالعقيدة التي شرفهم الله بها، وصبروا على الأذى، وهاجروا ونصروا من أجلها، إذ إنها مناط سعادتهم بل سعادة الإنسانية ـ أن لو انصاعت لها ـ في الدنيا والآخرة.

ومن وقع في شرك الردة فتحول من الإيمان إلى الكفر ومات على ذلك، فقد حبط عمله، وأصبح هباءً منثوراً؛ فلا سعادة في الدنيا ولا فوز في الآخرة، ومن وراء ذلك جهنم وساءت مصيراً.

أرأيت إلى ما جاء في الآية الكريمة بعد التنبيه على ما هو ديدن الكفار، من الرغبة العارمة في أن يرتد المسلمون عن دينهم: كم يحمل من الوعيد الذي نومىء إليه؟! يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

إنهما عقوبتان كل واحدة أدهى من أختها؛ حبوط الأعمال ـ هلاكها ـ في الدنيا والآخرة، والخلود في النار. ويستوقفك تعبير ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ إنهم لكثرة لصوقهم بجهنم واستدامة العذاب فيها: يبدون كأنهم مالكوها، فهي لهم وهم أصحابها نسأل الله لطفه ومعافاته منها ومن كل سبب من أسبابها.

إن هذا الذي حدث قبل ألف وأربعمائة عام تقريباً على يدي كفار قريش هو الغرض الدائم للكفرة ـ كما تدل الآية ـ مع المسلمين بوصفهم مسلمين ـ قبل أن يحسنوا أو يسيئوا ـ على اختلاف العناوين وتنوع الميادين.

فليذكر ذلك فتياننا وفتياتنا، شبابنا على كل صعيد وفي كل ساحة من ساحات الحياة. أنت ـ بالتزامك للإسلام إنصافاً واستقامة سلوك ـ لا تبدأ الآخرين بالعدوان. ولكن هذا لا يعني أن تكون غافلاً عن الحقيقة أو مغفَّلاً تنطلي عليه الحيلة ويبعثر فِكْره الزخرفُ أو الضجيج الإعلامي وما هو على شاكلتهما.

وليذكر الجميع في مواجهة الهجمات الشرسة على هذه الأمة نتيجة للمتغيرات في العالم الإسلامي قول خبيب رضي الله عنه وهو يستقبل الموت صَلباً في سبيل الله:

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً ... على أيّ جنبٍ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يَشأ ... يبارِكْ على أوصال شِلوٍ ممزَّع

وكم هو عظيم على صعيد الفاعلية والتأثير: أن يترجم ذلك إلى منهج ينظم المسيرة، ويقضي على بوادر الضعف.

وصدق ربنا إذ يقول في محكم تنزيله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

obeikandl.com

بعد المواجهة الإعلامية
سرية بطن نخلة.. والفرج بعد الشدة

«٧»

لمتسائل أن يتساءل عن الموقف الآخر من عبد الله بن جحش وإخوانه رجال سرية بطن نخلة رضي الله عنهم، بعد أن بدا أن بعض الصحابة من إخوانهم لم يعجبه ما صنعوا في أعقاب ما أطلق المشركون من الشائعات ونشروا من التهويل في شأن القتال في الشهر الحرام، وأن محمداً ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ينتهكون حرمة الأشهر الحرام.

قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: **«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»** فوقف العيرَ والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وأشرت من قبل إلى قول قريش، قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام.. قال ابن إسحاق: فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية.

والحق أن الآية الكريمة بما أعطت لكل شيء قدره: كانت عنوان فرج عن أهل السرية وتزكية لعملهم بل فرجٍ عن المسلمين. قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل نزل القرآن بتزكية بعد تزكية لعبدالله وإخوانه، فلهم أجر المجاهدين في سبيل الله؛ لأن القضية في أصلها كانت خروجاً في سبيل الله امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ برصد قريش وأخبارها في نخلة وإعلامه بذلك. وتهويل قريش المصطنع لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً.

جاء في رواية ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]. فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

وهكذا زكى الله عمل رجال هذه السرية، ووعدهم أجر المجاهدين في سبيل الله، حين ذكر هجرتهم وجهادهم في سبيله، وأن ذلك مفتاح الرجاء برحمته سبحانه ومغفرته العظيمة؛ فقد امتثلوا ـ كما ذكرت آنفاً ـ أمر رسول الله ﷺ ونفذوه بأمانة وشجاعة ابتغاء مرضاة الله ورسوله، وتوغلوا مغامرين بأرواحهم في أرض العدو وعمقه مسافات شاسعة، غير مبالين بما قد يودي بهم إلى القتل في سبيل الله... فعلوا ذلك كله عن رضًى وطمأنينة، دليلَ صدق الإيمان والحرص على الشهادة؛ فإن أميرهم لم يكره أحداً منهم عملاً بوصية الرسول الكريم صلوت الله وسلامه عليه، ولكن خيَّر ما بين الإقدام والإحجام؛ فاختاروا الإقدام ومتابعة التوغل في طريق قد تنتهي بهم إلى الموت.. وقد آن أن تعلم قريش أن الدعوة المباركة لم تعد في موقف الضعف، ولكن مرحلة جديدة مغايرة قد بدأت والحمد لله.

لقد كان المعلم القرآني الذي أشرق به قوله تعالى بعد الذي حصل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية رحباً في العطاء، رحباً في بعث الثقة بالنفس، ما دام الأمر في طاعة الله تعالى، وتنمية القدرة الذاتية من داخلها على مواجهة الأعداء بفهم وروية في شتى الميادين، ومنها هذا الميدان الإعلامي المضاد.

وكان رحباً في تمهيد الطريق لمن يدعون إلى ساحات الجهاد ضمن ظروف لا يعدم الأعداء فيها وسيلة يبتغون من ورائها تثبيط الهمم، وتفتيت القوى، وإحداث البلبلة في الصفوف، والانهزام النفسي عند المقاتلين.

وقد آل ــ بحمد الله ــ أمر الخطة التي دبرها الأعداء إلى الإخفاق، بل ارتدت سهامها إلى نحورهم، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا يأملون بضجيجهمُ الإعلامي والتذكيرُ الرباني بتلك الطامات من صنيع المشركين في مقابل دعوى ما ادعوا وأذاعوا وأشاعوا: لم يُبق مجالاً للهوادة مع الصادِّين عن سبيل الله الكافرين به وبالمسجد الحرام، مخرجي المسلمين منه - وهم أهله وذووه - العاملين على فتن الناس عن دينهم، المقيمين المقعدين على أخبث غاية وهي رد المسلمين عن دينهم غير تائبين ولا نازعين.

وتداعى رجال الأنصار إلى الاكتتاب في السرايا والبعوث التي يخرجها الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، بعد أن كانت تتألف غالبيتها من المهاجرين، حتى انتهى الأمربعد شهر إلى غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة المباركة.

وهكذا قاد رسول الله ﷺ حركة الجهاد في سبيل الله بإحداث التحوُّل النفسي عند قريش والعرب من ورائها عن طريق السرايا وما يتصل بها، وعملت هذه السرايا ــ ومن عيونها سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه وعن إخوانه ــ عملها على طريق مخاطبة قريش ومن وراءها باللغة المناسبة التي كان لا بد منها.

صحيح أن غزوة بدر قد جاءت على غير أجل متوقع أو موعد مضروب، ولكن التمهيد اللعام المزدان بحكمة النبي ﷺ وحسن تصريفه للأمور في المواجهة العسكرية والاقتصادية والفكرية: كان واقعاً بلا ريب.

وقد ظهرت في معركة الفرقان آثار البناء في ظل معالم الكتاب وتربية النبي عليه الصلاة والسلام، ووضح لكل ذي عينين أن عملية البناء الحقيقي في كيان خير أمة أخرجت للناس، كانت عملية شاقة بلا ريب، ولكن ثمراتها كانت عظيمة النفع، حاضراً ومستقبلاً للفرد والمجتمع والأمة.

ولقد يتضح ذلك أكثر وأكثر، عندما يحسن المرء التصور، فيضع في حسبانه عند التقدير لعملية البناء أن الأمة المحمدية صاحبة رسالة شاء الله أن تكون منهج حياة لا ينفصل فيها الدين عن الدولة، ولا الدنيا عن الآخرة.

وتلكم هي الأمة المسلمة التي رضي الله لها الإسلام ديناً ووعدها على الاستمساك به وتبلغيه الناس، والصبر على مشاق ذلك: سعادة الدارين، وجنات تجري من تحتها الأنهار هم فيها خالدون.

والرجال الذين خاض بهم محمد ﷺ غمار التاريخ، هم أولئك الذين سلمت لهم محاور البناء وتنمية قدرتهم وكفاياتهم من خلال التربية على الدعوة إيماناً وعلماً وعملاً وحرصاً على تقوى الله والجهاد في سبيله، ومن خلال التجربة والمعاناة الدقيقة العميقة؛ كالذي حصل لرجال سرية نخلة عليهم الرضوان أولئك الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ وما كان من انعكاسات ذلك على الصف الإسلامي في إعطائه مزيداً من تنمية طاقات المواجهة والقدرة على الثبات في وجه الزعازع والمفاجآت.

وبذلك استطاع شباب الإسلام ورجاله أن يكونوا ـ بعون الله ـ شيئاً بالغ الأهمية على ساحة التاريخ.

وقد هدانا المعلم القرآني إلى أنه كلما كان البناء أثبت وأحكم: كان الإنسان أقدر على تمحيص الأمور، وأكثر وعياً لما وراء الكلمة وزخرفة العناوين؛ فكم من حملات إعلامية وشائعات ظالمة مجافية للحق، ومؤلفات ونشرات تطلق، ولا يراد من ورائها إلا التضليل والتشكيك، والأمثلة من واقع المسلمين مع العاقّين من أبناء الأمة، والأعداء الظاهرين والأخفياء في كثير من الدول: تطالعنا وتجرح أكباد الذين تؤرقهم هموم الأمة صباح مساء.

ويفترض ـ في المقابل ـ أن يحكّم التكوين الذي يعطي المناعة ويتابع العطاء، ويضع الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على ساحة الحقيقة كما هي، وأن يكون لدينا السلاح الذي نقدم من خلاله تلك الحقيقة ناصعة الوجه، واضحة المعالم بما يحرسها ويحميها من الهدم والهدامين والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.